

الأبيض لا يليق بك
دراسة نفسية وأخرى جمالية
The white doesn't fit you
Psychological and aesthetic approach

ناصرى علاوة¹
allaoua.nasri@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2025/12/15
Received: 27/09/2025

تاريخ الاستلام: 2025/09/27
published: 15/12/2025

ملخص المقال:

للشباب حضور في الشعر العربي، وللشباب مثله، وللشعراء... ولهم تجاربهم في هذا وذاك، إبداع انتصروا فيه مرة للشباب، ومرة للشباب وفي سياقات مختلفة. جاء ذلك في ألوان من الأساليب مزخرفة خاصة إذا علمنا أنّ الشعر قائم أبداً على التصوير وفيه المجاز ليكون إحدى أدوات وصف الرجال والنساء في صراع نفسي أحد مظاهره بشاشة تضئ الوجه ثم تنطفئ حتى تكون المفاضلة عنواناً ظاهراً في كل ما يكتب في هذه الثنائية الضدية كالصفاء والكدر، والتوتر والهدوء، والنشاط والخمول.

والشعر هنا وجه من وجوه الحجاج مرة، والزينة مرة أخرى، وللمتلقي رأي قائم على القبول والرفض.

كلمات مفتاحية: الشباب، الشيب، البشاشة، الصراع النفسي، المفاضلة، سياقات

Abstract:

Youth has a presence in Arabic poetry, and so does Old Age. Poets have their own experiences with both, creating works where they sometimes champion Youth, and other times champion Old Age, within various contexts. This was presented in a variety of ornate styles, especially when poetry is fundamentally based on imaging and often uses metaphor as a tool for describing men and women in a psychological conflict. One manifestation of this conflict is a cheerful brightness that illuminates faces, only to later fade. Thus, the concept of favouritism becomes a significant theme in everything written about this contrasting duality, such as clarity and turbidity, tension and calm, activity and lethargy.

Poetry, in this context, is sometimes a form of argument, and at other times, a form of beauty. And the recipient has an opinion based on acceptance or rejection.

Keywords: Youth; Youth; white hair; attractiveness; psychological conflict; choice; contexts.

(1) جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة (الجزائر).

مقدمة:

من الموضوعات التي تناولها الشعراء في قصائد كاملة، أو في مقطوعات ظهور الشيب عند كثير من الرجال والنساء. وقد نشأ من ذلك موقفان متقابلان: أحدهما ينتصر للشباب وهو زهرة العمر، وثانيهما ينتصر للشيب وهو إحدى علامات الحكمة والوقار. وينظر إلى قصائد الشباب والشيب على أنها استجابات نفسية، وحمالة لحالات للنفس المطمئنة والمضطربة. لما كان السواد والبياض لونين متضادين يحملان كثيرا من الدلالات فهما في شعر الشباب والشيب تحيلان على رغبتين متصارعتين هما حب الحياة أو الزهد فيها، ما دامت الأولى نشاطا وحيوية، والثانية ذهابا سريعا إلى النهاية. وبين السواد والبياض، والشباب والشيب مفارقات منها حالات من الأنا والابتهاج، والحزن والاكتئاب، تلك بعض حالات النفار أو الرضا رصدتها عند شعراء الجاهلية ومن جاء بعدهم تؤكد أنّ دوام الحال من المحال وتلك سنة الله في الناس لا تحويل لها.

الشيب والشباب موضوعا في الشعر القديم

كان من أسباب حضور الشيب موضوعا عند الشاعر القديم، إحساس بالألم للتغيير الحاصل في جسم الانسان. فالرجل كالمراة يخالط البياض سواد شعرهما، ليصبح هذا التحول موضوعا لتجربة شعرية بدأها شعراء الجاهلية بناء وهندسة، ومن خلال ما تصنعه النساء من مواقف، فيها كثير من الشكوى، والتأفف والازدراء بالرجل. كان شعر علقمة بن عبده الفحل (20 ق هـ - 603 م)، وقد كانت له مساجلات مع امرئ القيس أحد النماذج الشعرية الأولى رسدا ووصفا لموقف المراة من الرجل وقد ابيض شعره (الطويل):

طحا بك قلب في الحسان طروب	بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيْبُ
فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي	بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ	فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدَّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ	وَشَرُّ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ (الضي، 2004، صفحة 216)

إنّ الإحساس بوطأة الزمن أحد موضوعات التجربة الشعرية، يأتيه الانسان وقد أدرك أنّ هذا الشيب يأتي الناس جميعا، لا يفرق بين أحد منهم، يبدأ شعرة واحدة ثم يحيط بالرأس إحاطة القوي بالضعيف، ليكون نكدا ما من صداقته بُدّ، وليكون رد القول، ورد الفعل مختلفا، سببه -مثلا- أنّ المراة تُعَيِّرُ الرجل "لما رأت طالعا للشيب بين ذوائبي"... وينشأ بعد ذلك الوعي بالبدن الشعري، ذلك أنّ جمالية البدن الشعري يتحقق بما يتضمنه ويُعبّر عنه من قيم، ومن فعل إيجابي، أنّ الوعي الشعري يعبر عن رؤية الانسان العربي لذاته وللآخرين. (الجهاد، 2007، صفحة 282)

كان امرؤ القيس أحد الشعراء في الجاهلية وصفا لحاله، وقد وجد من النساء حوله انصرافا عنه بعد أن غزا الشيب شعره. كان من عادة النساء الدنو منه، وقد سمعن صوته، ليكون الأنس حبيبا إليه وإليه. تلك صورة أخذها من الطبيعة حوله (ترعوي عيط إلى صوت أعيسا).

وامرؤ القيس بهذا الموقف إنما عبّر عن انفعالات وأمزجة شخصية هي جزء من كثرة كثيرة من القصائد الغنائية تنطق بما يُسمى المزاج الانفعالي للشاعر: فرحُه، حزنه، اكتئابه /.../ فقد يظهر حزن الشاعر بذكره بفناء الأشياء، وانقضاء الزمن، واختفاء الشباب والجمال، وبداية الضعف والوهن. (ستيس، 2000، صفحة 188)

ومن حديث امرئ القيس عن الشيب في سنينته، وهي أربعة عشر بيتا (14) بدأها كعادة الشعراء بخطاب اثنين من أصحابه، يدعوها إلى الاجتماع، وهو ما يُسمى في النقد بالجنوح عن الأصل أو الانزياح، والقصيدة من الطويل:

أَلَمَّا عَلَى الزَّبْعِ الْقَدِيمِ بَعْسَعَسَا كَأَنِّي أَنَادِي أَوْ أَكَلِمٌ آخَرَسَا
وَبَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ أَرُوخُ مُرَجَّالًا حَبِيبًا إِلَى الْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ أَمَلَسَا
يُرْعَنُ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعَنَهُ كَمَا تَرَعَوِي عَيْطٌ إِلَى صَوْتِ أَعْيَسَا
أَرَاهُنَّ لَا يُحِبِّسَنَّ مَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا (امرؤ القيس، 1974، الصفحات 231-232)

مرجلا: رجل، شعره: سواه وزينه وسرجه.

ما يلاحظ في قصيدتي علقمة الفحل، وامرئ القيس أنهما تتفقان في رسم صورة النساء ومواقفهن من الرجل وقد قلّ ماله، وضحك المشيب في نواحي ظلامه. والضحك في حالات كثيرة هو استخفاف بالرجل يبدأ قليلا ثم يشتد ليكون علامة من علامات العنف المجازي المسلط على الرجال.

لقد ظهر امرؤ القيس في أحسن صورة له كالرجل عامة، وقد علم أنّ تسريح الشعر أمر مندوب في حياة الانسان، وأنّه من النظافة، وهو إكرام له ولنفسه ولغيره.

ومثل هذا السلوك المشروع في حياة امرئ القيس، إنما هو جزء من الحياة العامة التي يمارسها أبناء الملوك، وقد علموا أنّ لكلّ أجل كتابا. ويظهر أن امرأ القيس قد أعلن دنوّ أجله، وقد تمكن منه السُمّ حين لبس تلك الحلة المسمومة التي وجه بها إليه ملك الروم... وهو القائل:

وَبَدَّلْتُ قَرَحًا دَامِيَا بَعْدَ صَحَةٍ لَعَلَّ مَنَايَا تَحُولُنَّ أَبْوَسَا
والقصيدة في جزء منها إخبار عن سلوك معلوم يأتيه الرجال، وتأنيبه النساء، وأنّ للرجال - كما للنساء - عواطف... فالإقبال والإدبار، والتداني والتجاني حالات نفسية قديمة تضعف وتشتد بحسب المقامات والسيقات.

ذلك رأي المحلل النفسي للأدب، فاهتمامه محصور بالأنا اللاشعوري العميق الذي هو أكثر حقيقة من الواقع اليومي، ويتجلى هذا الأنا في الأثر الفني حين يعكف عليه الباحث مزوّدا بكل عدة الناقد من علوم جمالية وثقافية فلسفية ودراسة فنية. (نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، 1991، صفحة 41)

وجاء في بعض الدراسات النفسية، انطلاقا من سؤال معقول: هل حقا أنّ الرجال لا يفهمون لغة الجسد عند المرأة؟ وكان جواب الرجال أقلّ חדسية من النساء، وقد تكون المرأة أفضل في قراءة لغة الجسد لأن أجزاء أكبر من دماغها تنشط عند تقييم سلوك الآخرين (شريف، 2022).

كان ما قاله علقمة الفحل، وامرؤ القيس ترجمة لحالات من النفار le dégoût/ la répugnance عند المرأة، هي ترى عين اليقين تحول الرجال من قوة إلى ضعف، ومن نشاط إلى ذبول، ومن ربيع إلى خريف ليكون للرجل ردّ فعله، وردّ قوله.

وخلاصة الكلام هنا، كما جاء في كتاب "Sophie Fontanel : une apparition des hommes trop cons" من هذه المواقف للشعراء، والنساء اللاتي يعملن في صالونات التجميل، نجد اتفاقا يحدد كيف تكون المرأة هي وسيط الرجل إلى اكتشاف ذاته الحقيقية... ذلك ما يؤكد جورج غسدورف (George gusdorf) (1912-2002) أحد تلاميذ Gaston Bachelard أن معرفة الذات لا تتحقق بمجرد النظر إلى أنفسنا والتأمل فيها. إنها لا تتحقق إلا بواسطة العالم وفي العالم، فالإنسان لا يكتمل إلا بالآخرين. (نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، صفحة 99)

فالمرأة -عموما- مرآة الرجل، والرجل مرآة المرأة. إذا صفت النيات (وذلك ما كنا نبغ)...

كان للأعشى: في بعض قصائده، مواقف حين رسم لسعاد وسلمى، وهما تنفران من ظهور الشيب والصلع (la calvitie, the baldness) عند الشاعر وجاء في ديوانه (البسيط):

بانت سعادٌ وأمسى حبلاها انقطعا
واحتلت العمر فالجدين فالقرعا
وأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلّا الشيب والصلعا

ومع ذلك، فالشيب والصلع علامة الوقاء والحكمة والجمال، والدخول إلى العالم الجديد، عالم التأمل والروحانيات. بحسب د. يوسف حكيم أحد الاختصاصيين في علم الانتروبولوجيا. والصلع لا يُعاب... قال أحدهم (البسيط):

لقد بنى المجد أباء لنا سلفوا
صلع الرؤوس وسيما السادة الصلع
ولما كان الشيب أمرا لا يخفى بياضه على أحد... وظهوره يرتبط عادة بالتقدم في السن، لكنّه في حالات أخرى تولده الأزمات عند النساء، وهنّ أكثر رقة وأقوى عاطفة في حالات فقد عزيز لهنّ.

ذلك حال هند بنت حذيفة وقد قُتل أخوها حصن بن حذيفة... قالت تدعو قومها إلى الأخذ بالثأر (الطويل):

تطاول ليلي للهموم الحواضر
وشيب رأس يوم وقعة حاجر
لعمري. ما عمري على بهيّن
ولا حالف برا كآخر فاجر
لقد نال كرز يوم حاجر وقعة
كفت قومه أخرى الليالي العوائر (القيسي، 1964، صفحة 67)

والخنساء في باب الرثاء أشهر من علم في رأسه نار، بكت أخاها صخرا حتى عميت، وأدركت الإسلام... كان أخوها صخر مصدر رضاها، ومصدر قلقها... وهي في أول عهده... تقول (الوافر):

يذكرني طلوع الشمس صخرا
وأذكره لكل غروب شمس
وانتهت معه إلى قولها (البسيط):

كأنّ عيني لذكره إذا خطرت
فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي خناس على صخر وحق لها
إذ رابها الدهر إنّ الدهر ضرار

وقد رأى شوقي ضيف أن الخنساء أشهر من بكت واستبكت في الجاهلية (ضيف، صفحة 14)، ولهذا السبب، مع طول عمرها، لم تكن بمنأى عن اشتعال رأسها شيئا... "وكانت تقف بالموسم"، فتتوسّم هودجها بسومة، وتعظم العرب بمصيّبتها بأبيها عمرو بن الشريد، وأخويها صخر ومعاوية ابني عمرو، وتنشدهم فُتْكي الناس. (مكي، 2007، صفحة 157)

وفي الموسم، وفي غيره -أصبحت الخنساء هدفا يرمى، فالنساء حولها ينظرن إليها، وقد لاحظن ما صارت إليه. فالشيب، في منظره العام، يحو السنين الطيبة لشباب مضى. قالت (الطويل):

تقول نساء، شبت من غير كبرة
ذكرتك، فاستعبرت، والصدر كاظم
وقد قصمت مني قناة صليبة
وأيسر مما قد لقيت يشيب
على غصة منها القواء يذوب
ويقصم عود النبع وهو صليب
وعليه، فلم يبق للخنساء شيء من مجبوحة العيش التي ولّت مع ذهاب المنعمين عليها، صاغته في تجربة شعرية التي هي قبل كل شيء
تجربة لغوية تفيض عواطف وأحاسيس لترسم لنفسها صورتها كما عرفناها من شعرها.

ثنائية الشباب والشيب في العصر العباسي

مازال المد الشعري قائما في العصر العباسي، ومازال الحديث عن ثنائية الشباب والشيب موضوعا عند الشعراء العباسيين. موافقا تارة، ومخالفا أخرى ما جاء قبل هذا. فالشاعر يرى أنّ مساحة الشباب مستمرة في الانحسار أمام زحف الشيب، وعلاماته مرسومة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه.

كان هذا الشاعر يعبر عن هذا التضاد القائم بالأساليب التي هي جزء من نظام الكلام...
فللشباب سلطة وحضور... وللشيب سلطة وحضور... والشباب إحدى علامات الحياة والقوة، والشيب علامة للوقار والحلم، ليكون المدح والذم غرضين قائمين في هذا الباب بحسب توجهات الشاعر وسلوكه.

كان الشعر عند العرب الشكل الأسمى لنقل مثل هذه العواطف والإحساسات التي تتجلى في كراهية الشيب والازدراء به ما دام علامة للنهاية والفناء... وبين محبة الشباب والانتصار له مادام ينضح بالزهو والصفاء... فكيف عبّر الشعراء العباسيون عن تلك المواقف؟
كان دعبل الخزاعي (148هـ - 220هـ / 765م - 835م) من الشعراء الذين مدحوا الشيب، وقرنه بالحلم والأناة والأدب، وهو الذي عاش سبعين عاما، وهو القائل (البسيط):

إنّ المشيب رداء الحلم والأدب
كما الشباب رداء اللهو واللعب
تعجبت أنّ رأيت شبي فقلت لها
لا تعجبي. من بطل عمر به يشب

ودعبل الخزاعي - كباقي الشعراء - أنطقته امرأة تعجبت من سوء المنقلب في حياته، والتعجب هنا اضطراب في حياة المرأة التي كانت تنظر إليه بعيون مطمئنة ليعلمها أنّ دوام الحال من المحال والتحول في الجسد أمر طبيعي. ويستمر دعبل الخزاعي في مديح الشيب، فقال (الكامل):

أهلا وسهلا بالمشيب فإنّه
وكأنّ شيبني نظم درّ زاهر
ضيف ألم بمفرقي ففقرتُ
سمة العفيف وهيئة المتحرج
في تاج ذي ملك أغرّ متوج
رفض الغواية واقتصاد المنهج
لا شيء أحسن من مشيب وافد
بالحلم محترم الشباب الأهوج (الخزاعي، 1998، صفحة 57)

والشاعر في قصيدته يرى في المشيب مواعظ، تروح معه وتغتدي، فلا أمن مع الدهر الفتون الذي يصير إلى نهاية... فالشباب لا أهلا ولا سهلا به... فهو سمة الغواية واللهو واللعب. والشاعر مرة أخرى يُنصّب نفسه مدافعا عن مرحلة الشيب، وفيها يأخذ المرء زينته ليكون

الشباب هدفا يرمى... فهو الأهوج الذي هو الطويل في حمق وطيشٍ ليكون كالريح المتدركة القاطعة. والأهوج والهوجاء من به غفلة ومن كان كذلك فلا أهلا به ولا سهلا.

ولما كان الشيب بمنزلة الضيف الوافد، فقد استحق كل الترحيب، وليكون ذكره حميدا بين الناس. والشاعر في حكمه لطيف بالشيب، فظ غليظ مع المرأة التي استفزته إذ عيّرت به بما رأت، كان هذا الاهتمام بالشيب قيمة إيجابية، دفعت الشاعر إلى استحضار/ استدعاء إحدى فضائل المجتمع العربي حين شبهه بالضيف الذي يستحق أن يلقي البشر تلو أكثر مبتسما. ودعبل الخزاعي في زخارفه، ودفاعه عن الشيب، وجد في التشبيه الذي أداته "كأن" أسلوبا حجاجيا قائما على المبالغة، الخارجة عن حقيقة الأمور، كما وجد فيه أسلوبا للزينة مفاده أنّ الشيب نظم در زاهر في تاج ذي ملك أغر متوج. ذلك أنّ الأزهر موصل بالنقاء، والسلام والبراءة من كل عيب ليكون المدح مدحين: مدح لحاله وقد بلغ السبعين... وثناء موصل للملك الأغر المتوج أمامه في بغداد وما لحق بها من أقاليم.

1.2. الشيب والشباب في شعر أبي تمام (188هـ - 231هـ / 803م - 845م):

وفي قراءة لحضور الشيب في شعر أبي تمام، وفي جانبه النفسي يتضح أنّ هذا الشيب سبب للبكاء واليأس من استمرار الأيام الجميلة، مادام هذا الشيب داء يقصر العمر، بدلا من تطويله، والصراع القائم هنا يعجل النهايات، وقد توجّه نساء في محيط الشاعر. وفي قصيدة طويلة في مدح محمد بن يوسف الثغري بدأها بمقدمة الشيب الذي كان محل ذم (الخفيف):

وكعابا كأنّما ألبستها	غفلات الشباب بردا قشيا
لعب الشيب بالمفارق بل جد	د فابكي تماضرا ولعوبا
بينّ البين فقدّها فلم تع	رف فقدّا للشمس حتى تغيبا
خضبت خدّها إلى لؤلؤ العق	د دما أنّ رأت شواقي خضيبا
كل داء يرجى الدواء له	إلا لفظيعين ميتة ومشيبا
يا نسيب الثغام ذنبك ألقى	حسناتي عند الغواني ذنوبا
ولئن عبّ ما رأيّن لقد أن	كرن مستنكرا وعبّ معيبا
أو تصدعن قى لكفى بالشيب	ب بيني وبينهم حسيبا

لو رأى الله أنّ في المشيب خيرا جاورته الأبرار في الخلد شيبا (أبو تمام، 2003، الصفحات 32-33)

ويتأكد من شعر أبي تمام أنّ البياض لا يليق بالنساء ولا بالرجال، وإنّما هو عيب يلحق الجميع، وأنّه داء لا دواء له... لذا كان الخضاب الذي تمارسه المرأة والرجل طلبا للزينة، ودفعا للقبح إحدى الحيل التي لا تخفى على ناظر. ولكنّها حيلة لا تقوى أمام سلطة الزمن. والمرأة - في هذا الوضع - كالرجل، تسرف في الانفاق على العناية بالشعر، درءا لكل تصدع في العلاقات.

وفي الجانب البلاغي / الجمالي لموضوع الشيب، يرى أبو تمام أنّ التواصل بينه وبين قارئه قائم على الرضا والقبول، لذا كان في استعداد للاستجابة التامة لذوق المتلقي العربي حينها، وبعد ذلك بقرون، فالكعاب هيئة مليحة للجارية والفتاة، وهي جارية كعوبة، وكاعب، وجمعها كواعب، وجاء ذكرها في القرآن الكريم: "وكواعب أترابا" النبأ 33. وهذه الصفات تناسب الشباب الذي يخلق الجميل عندما يشكل مادة خارجية بغرض محدد هو جعلها تعبر عن جانبه العقلاني (ستيس، 2000، صفحة 153) مادامت الأشياء الجميلة هي دائما عينية... تكشفها لغة الشاعر في تعبير يثير في متلقيه بفضل صياغته كثيرا من الانفعال والاحساس بجمال اللغة...

لقد أسند الشاعر للشيب أفعالا كاللعب بالمفارق... والتجديد... وابكاء الكواعب... ليكون المجاز العقلي أسلوبا قائما على العدول والانزياح وهو من متطلبات الابداع الشعري.

كما أنّ للشاعر القدرة على اللعب بالألفاظ عن طريق لعبة الاشتقاق الذي أبدى فيه مهارة لا تنافس، من ذلك قوله: بينّ البين- خضبت خضيبا- ذنب ذنوبا- عين معيبا...

ولمثل هذا الاشتقاق أثر طيب في نفس المتلقي. ذلك ما ذكره ابن جني (وذكر أبو بكر بن السراج أنّ منفعة الاشتقاق لصاحبه أن يسمع الرجل اللفظة فيشك فيها، فإذا رأى الاشتقاق قابلا لها، انسى بها وزال استيحاشه منها (ابن جني، صفحة 369).

ويرى البعض في كثرة الاشتقاق عند أبي تمام كان مأنوسا، قريب المأخذ، يقدر لذة الأذن ومتعة السمع فيها دليل على أنّ العربية لغة مطواع، فيها من القدرة والاستجابة لكل مستجدات العصر. (عبد الحاسم، 2002)

أمّا ابن الرومي (221هـ - 283هـ / 836م - 896م)، وهو بغدادى المولد، أمّه فارسية، ولم يكن عمره كلّه إلا سلسلة من المحن والنكبات التي أصابته في نفسه. وفي زوجته وأولاده، ومدن وقد أنحكها العدو فبكاها، وجاء كثير من شعره صورة ناطقة بألمه وتشاؤمه وتطوّره. كما جاء الجزء الآخر من شعره يكشف عن حبه للحياة فانغمس فيها، وقد علم أنّ بغداد كانت تلخ عليه ليأتيها... لكنّه -والأيام تجري إلى الضد- نظر إلى نفسه حين أقبل على الحياة، فوجد "نفسه شاب، وسيم، أبيض اللون، جميل العينين، منتصب القامة، طويلها /.../ لقد أسرع الصلح إلى رأسي، وتقوس ظهري، وضعف بصري، وغربلت في مشيي، (الكامل):

لجأت إلى لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت علي من الصلح" (شرف الدين، 1985، صفحة 55)

كان ابن الرومي يذوي كما يذوي القضيبي من الرند، وأصبح كالشجرة تتساقط أوراقها وتعرّت أغصانها، ورأى أنّ الشباب لم يكن إلّا حلما.

لقد وقف في كلّ هذا المعترك متأملا المشهد القبيح، والآخر الجميل، واتخذ له موقفا من الأصوات المزعجة، المنكرة لبعض المغنيين والمغنيات، ومن بعض الأنوف الطويلة، واللحى، وهي كلّها مصدر نكد لما تأملها ابن الرومي... فلا انسجام ولا تناسب فيما يرى.

كان ابن الرومي في شعره "فنان لا ينقصه إلا الريشة واللوحه، بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض عن الريشة بالقلم وعن اللوحه بالقرطاس، فالتقى بهما وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال". (محمود العقاد، 1983، صفحة 548)

وكان ينوه بالجميل، ويقدّسه، فهو يحيل قارئه على كل مسموع ومشوم وملموس ومرئي "فأما الحسن في تلك الأشكال فيزدهيها ويطرّبا ويبحث آمالها وتأنس من البشرى الجميلة والفأل السعيد". (محمود العقاد، 1983، صفحة 593)

ولم يكن ابن الرومي في هذه الانفعالات جديدا في المشهد الشعري العربي. فقد أتاها غيره، وهو بذلك عبّر عن ذاته، وعن شخصيته أحسن ما يكون التعبير الشعري بلغة قابلة للإيحاء مع امتلاك قوة التأثير بحسب الآراء النقدية عند شكري عزيز الماضي.

كان ابن الرومي في حديثه عن صور الشباب الجميلة، إنما ينطق فيها من اللحظة الراهنة وفيها وقف عند اللحظة الشعرية الحبلى بكثير من الحزن والأسى.

على جنبات أنهار عذاب

يذكرني الشباب جنان عدن

فهنّ متوج أغصان رطاب

تفيء ظلها نفحات ربح

بواكي الطير فيها بانتحاب (ابن الرومي، 1994، صفحة 168)

إذا ماست ذوائبها تداعت

والشاعر -هنا- يُفاضل بين مرحلتين من عمره، وتجربتين عاشهما، وكان أحلاهما وأحبهما إلى نفسه، ما مضى، وفيها مارس الحياة في جو جميل على جنبات أنهار عذاب، فذكره ذلك بشبابه لتكون "جنان عدن" المرجعية الثقافية لابن الرومي، وإليها كان المنتهى الذي لا نظير له... كما هي المرجعية الدينية إذ وردت في سورة التوبة: 72 وطه 76، النحل 31 وهي المنازل العالية في جنات الإقامة الدائمة، تجري من تحت اشجارها الأنهار، ماكتنن فيها أبدا وذلك النعيم المقيم. (التفسير)

وجنات عدن ألهمت كثيرا من الشعراء، والكتاب والمخرجين السينمائيين لبعث الفكرة من بدايتها لتنتهي في بعض الأفلام إلى أنّ الناس يبحثون عن الأماكن الهادئة المطمئنة في حالات من الحروب والمجاعات والفتن التي تأتي على الأخضر واليابس.

وما قاله ابن الرومي في عودته إلى مرحلة الشباب، وفيها كثير من الصفاء والزهو، هو في الحقيقة هروب من الحاضر وفيه كثير من الكدر بأسلوب فني هو الفلاش باك Flash back وهي تقنية يوظفها الكتاب في المسرح والشعر والأعمال الروائية وخاصة الرواية البوليسية. ولا يمكن للذاكرة -هنا- إلا أن يكون عاملا إيجابيا، مُخلصا الشاعر من الوقوع في النسيان... فصيغة الفعل المضارع حقيقة أحد المضادات للنسيان...

وابن الرومي في شبابه موصول باللذة، والنعيم في العاصمة بغداد "وفيها كثير مما يسرّ" ويلد من اتبع الشاعر هواه... وهو في شعره زير النساء... يقول (مجزوء الكامل):

سقيا لأيام مضت	وطويلها عندي قصير
أيام لي بين الكوا	عب روضة فيها غدير
أصبى وأصبى الغا	ثبات واستراز واستزير
بيض الوجوه عقائلا	لم يصبهن سواي زير
وها هو يبكي شبابه الذاهب:	

لا تلح من يبكي شيبته	إلا إذا لم ييكها بدم
عيب الشيبية غول سكرتها	مقدار ما فيها من النعم

كان موقف الغانيات أنّ أنكرنه وهو الذي بلغ الآن خمسين سنة... وهو يخاطب نفسه (الطويل):

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر وشبّ فألحظُ المَهْما منك تُقَرُّ (زيد، 2012، صفحة 262)

2.2. الشيب والشباب في شعر السري الرفاء -973م:

ومنه ما جاء تصويرا لموقف المرأة من الرجل وقد علا الشيب رأسه. كان هذا التصوير في سبعة (07) أبيات هي من مقدمات الشيب وفي قصيدة هجاء (الوافر):

تروّع هجرها قلبا مروّعا	صديق الشيب يملأه صدوعا
أرتها الأربعون هشيم روض	وقبل الأربعين رأت ربيعا
هزيع شيبية طلعت عليه	كواكبه فرصعت الهزيعا
ألا فاعجب لما صنع الغواني	فقد أفسدن بالغدر الصنيعا
كفرن بذلك الصنم المفدي	وكن له سجودا أو ركوعا
يرين بعاره قرب الأماني	وضيق عناقه العيش الوسيعا

ليالي يخجل الريحان ريحا إذا انتشحته غانية ضجيجا (الرفاء، 1991، صفحة 163)

الصديع: الظهور؛ الصدوع: الشقوق؛ الهشيم: كل شيء كان رطبا فيبس؛ الهزيع: جزء أخير من الشئبة، والهزيع موصول بتقسيم الليل إلى أجزاء؛ الغواني: المرأة تستغني بحسنها عن الزينة؛ اتشح: لبس الوشاح؛ الضجيج: المضاجع. ومن المجاز: بئس الضجيج الجوع. تكشف هذه المقدمة على لسان الشاعر الذي تجاوز عمره الثمانين عقلية المرأة ونفسياتها وقد اتخذت الأربعين من العمر مقياسا للجمال. فما كان من قبل ربيعا، طلقا، مختالا، ضاحكا، ليتحول بعد ذلك إلى روض هشيم، يابس، قابل للاحتراق. والمرأة هنا خالية من كل جميل، يدعو موقفها إلى التعجب لما يصدر عن النساء وقد غدرن بالرجال وكفرن بالنعيم... وقد كنّ قبل هذا مطيعات، ساجدات، راكعات.

لقد تحقق الآن جزء من أمنياتهن، وجرت سفنهن بما اشتتهت أنفسهن، وما كان منهن خوفا، أصبح أمنا وراحة... فالريحان وهو نبات عطري أزهاره بيضاء، يخجل من أن تصل رائحته الآخرين إذا علم أن مثل هؤلاء الرجال يتخذون الغانيات مضاجع. والشاعر سيء الظن بالرجال، ويتهم الغواني بالتضليل والمراوغة من خلال لغته التي تواصل بها مع الآخرين. فالألفاظ في ظاهرها غير الألفاظ في استعمالها الثاني، وقد وقف النقاد عند المعنى الثاني مبهورين، مندهشين... فهشيم روض يقف في تضاد مع الربيع، ففي الأول قباحة وفي الثاني جمال. وفي الأول نهاية مروعة، وفي الثاني بداية رائعة. كما أن الكواكب في حقيقتها ترصع السماء وتضيء الأرض... فهي عنصر ايجابي... وفي القواميس الكوكب والكوكبة: النجم، وقال أهل اللغة النجوم تجمع الكواكب كلها.

والكواكب عند الشاعر هو الشيب الذي زين الرأس لتكون استعارة تصريحية، وقد نظر علماء البلاغة إلى مدى التطابق بين طرفيها فوجدوه بعيدا. فما كان في الكواكب حقيقة من الإنارة ينتفي وجوده في الشيب، اللهم ما كان من تحقيق فكرة الوقار الذي يضيء لصاحبه الطريق.

وقد أحسن الشاعر المقارنة بين صفتين للرجل والمرأة... الرجل صنم مفدى... والمرأة ساجدة أو راكعة، ولكن أمر النساء عجيب غريب، فقد كفرن وجحدن لتنشأ المفارقة أسلوبا وهادفا تعكس طبيعة المرأة بين امساكها للأمور، وبين أن تزل بها قدمها.

خاتمة:

يكشف المقال عن:

- الشباب والشيب بنيتان متضادتان تجسدتا في اللونين الأبيض والأسود.
- بين الشباب والشيب صراع دائم وهما محل ترحيب وحفاوة بحسب الظروف.
- يكون الدين عاملا يتحكم في قبول حالات التغيير الذي يظهر على جسم الانسان.
- تكون المرأة أحد الأسباب في كثير من قصائد الشيب.
- يكون الشاعر صاحب أسلوب يزخر به المواقف المختلفة لحالات الشباب والشيب.
-

المصادر والمراجع:

Bibliographie

- ابن الرومي. (1994). ديوان ابن الرومي، شرحه أحمد حسن صبيح. بيروت: دار الكتب العلمية.
- bn al-Rūmī. (1994). *Dīwān Ibn al-Rūmī, sharaḥahu Aḥmad Ḥasan Ṣubayḥ*. Bayrūt : Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.
- Galy-Ramounot, M. (2017, Septembre 8). *madame Lefigaro*. Récupéré sur Celebrités:
<https://madame.lefigaro.fr/celebrities/sophie-fontanel-cheveux-blancs-instagram-interview-070917-133876>
- ابن جني. (s.d.). الخصائص الجزء 3.
- Ibn Jinnī. (s. d.). *al-Khaṣā’iṣ al-juz’ 3*.
- ابن خلدون، ع. ا. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.
- Ibn Khaldūn, ‘A. A. (1984). *Tārīkh Ibn Khaldūn*. Bayrūt : Dār al-Qalam.
- أبو تمام. (2003). ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه الأديب شاهين عطية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- Abū Tammām. (2003). *Dīwān Abī Tammām, ḍabaṭahu wa-sharaḥahu al-adīb Shāhīn ‘Aṭīyah*. Bayrūt : Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah.
- الجهاد، ه. (2007). جماليات الشعر العربي (دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري العربي). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- al-Jihād, H. (2007). *Jamālīyāt al-shi‘r al-‘Arabī (dirāsah fī Falsafat al-Jammāl fī al-Wa‘y al-shi‘rī al-‘Arabī)*. Bayrūt : Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-‘Arabīyah.
- الخزاعي، د. (1998). ديوان دعبل الخزاعي، شرح مجيد طراد. بيروت: دار الجيل.
- al-Khuzā‘ī, D. (1998). *Dīwān Di‘bil al-Khuzā‘ī, sharḥ Majīd Ṭarrād*. Bayrūt : Dār al-Jīl.
- الرفاء، ا. (1991). ديوان السري الرفاء (عن نسختي الأديبين الكبيرين المرحومين تيمور باشا والبارودي باشا). بيروت: دار الجيل.
- al-Raffā’, A. (1991). *Dīwān al-sirrī al-Raffā’ (‘an nskhty al’dbyyn alkbryyn al-marḥūmīn Taymūr Bāshā wālbārwdy Bāshā)*. Bayrūt : Dār al-Jīl.
- الضيبي، ا. (2004). المفضليات، قصي الحسيني (تحرير). بيروت: دار البحار.
- Lḍby, A. (2004). *al-Mufaḍḍalīyāt, Quṣayy al-Ḥusaynī (taḥrīr)*. Bayrūt : Dār al-biḥār
- القيسي، ن. ح. (1964). الفروسية في العصر الجاهلي. بغداد: مكتبة النهضة.
- al-Qaysī, N. Ḥ. (1964). *al-furūsiyah fī al-‘aṣr al-Jāhili*. Baghdād : Maktabat al-Nahḍah.
- امرؤ القيس. (1974). ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري، اعتنى بتصحيحه الشيخ ابن أبي شنب. الجزائر: ش و ن ت.
- Imru’ al-Qays. (1974). *Dīwān Imri’ al-Qays ibn Ḥajar al-Kindī li-Abī al-Ḥajjāj Yūsuf ibn Sulaymān ibn ‘Isā al-Ma‘arif bil-A‘lam al-Shantamarī, i’tanā bi-taṣḥīḥihi al-Shaykh Ibn Abī Shanab*. al-Jazā’ir : Sh wa N t.
- زيد، س. ي. (2012). ابن الرومي (قراءة نقدية في شعره). عمان: دار عالم الثقافة للنشر.
- Zayd, S. Y. (2012). *Ibn al-Rūmī (qirā’ah naqdīyah fī shi‘rih)*. ‘Ammān : Dār ‘Ālam al-Thaqāfah lil-Nashr.
- شرف الدين، خ. (1985). ابن الرومي. بيروت: منشورات دار مكتبة الهلال.
- Sharaf al-Dīn, Kh. (1985). *Ibn al-Rūmī*. Bayrūt : Manshūrāt Dār Maktabat al-Hilāl.
- شريف، س. (2022). نوفمبر 6. (سكاي نيوز عربية). Récupéré sur <https://www.skynewsarabia.com/technology/1569061-%D8%A7%D9%94%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AC%D8%A7%D9%84-%D9%8A%D8%AC%D8%A8-%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%81%D9%87%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85-%D9%8A%D9%82%D9%88%D9%84-%D9%83%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%87>
- ضيف، ش. (s.d.). فنون الأدب العربي (الفن الغنائي بالرفاء). القاهرة: دار المعارف.
- Dayf, Sh. (s. d.). *Funūn al-adab al-‘Arabī (al-fann al-ghinā’ī bālrthā’)*. al-Qāhirah : Dār al-Ma‘ārif



- عبد الحاسم, ع (سبتمبر 2002). كيف تتذوق اللفظ العربي. مجلة العربي. 126.
- ʿAbd al-ḥāsim, ʿA (Sibtambir 2002). Kayfa ttdhwq al-lafz al-ʿArabī. Majallat al-ʿArabī. 126.
- محمود العقاد, ع. (1983). المجموعة الكاملة، مج 25 (الأدب والنقد). دار الكتاب اللبناني.
- Maḥmūd al-ʿAqqād, ʿA. (1983). al-Majmūʿah al-kāmilah, Majj 25 (al-adab wa-al-naqd). Dār al-Kitāb al-Lubnānī
- مكي, ا. م. (2007). دراسة في مصادر الأدب. القاهرة: دار الفكر العربي.
- Makkī, A. M. (2007). dirāsah fī maṣādir al-adab. al-Qāhirah : Dār al-Fikr al-ʿArabī.
- نجم, خ. (1991). في النقد الأدبي والتحليل النفسي. بيروت: دار الجيل.
- Najm, Kh. (1991). fī al-naqd al-Adabī wa-al-taḥlīl al-nafsī. Bayrūt : Dār al-Jīl.
- ولت -ت- ستيس. (2000). معنى الجمال (نظرية في الاستيقاظ)، امام عبد الفتاح امام (ترجمة). القاهرة: المجلس الأعلى للشباب.
- Wlt-t-stys. (2000). maʿnā al-Jammāl (Naẓarīyat fī alāstytyqā), Imām ʿAbd al-Fattāḥ Imām (tarjamat). al-Qāhirah : al-Majlis al-Aʿlā lil-Shabāb.